حجاجية المثل في نصوص "كليلة و دمنة" لابن المقفع
-دراسة في باب"الأسد و الثور"

الأستاذة : ليلـــى جغـــام
كلية الآداب و اللغات
جامعة محمد خيضر، بسكرة - الجزائر

ملخـــص:

تتناول هذه المقالة المثل من حيث هو نمط حجاجي يؤسس لرؤية إقناعية وفعل تأثيري واضحين في مدونة قديمة ذات طابع تربوي تعليمي نقدي هي كتاب "كليلة ودمنة " لابن المقفع، الذي يتخذ فيه الحيوان بديلا عن الإنسان ودليلا عليه لتحقيق أهداف عرفت وما تزال تكتشف مع كل قراءة، وفي كل عصر بحسب معطياته وأنماطه البشرية، وستركز هذه المقالة بشكل خاص على دراسة " باب الأسد والثور " بما يحمل من خفايا السياسة الداخلية للدولة، والصراع الذي تتضمنه العلاقات بين السياسيين أنفسهم وفق مقاصد إصلاحية ونقدية .

Résumé :

L'objet de cet article est de mettre en lumière le proverbe en tant que type argumentatif, qui constitue une vision corrective et éducative, et cela dans le livre de " Kalila wa Dimna " d'Ibn El Mokafaa , ou on trouve la permutation de rôle entre l'animal et l'homme pour réaliser des objectifs politiques et critiques.
critique

1 – تقديم في عرض الكتاب :

كتاب "كليلة ودمنة " هو ما وضعته علماء الهند من الأمثال والأحاديث، التي ألهموا أن يدخلوا فيها أبلغ ما وجدوا من القول في النحو الذي أرادوا، ولم تزل العلماء من كل أمّة ولسان يلتمسون أن يعقل عنهم، ويحتالون لذلك بصنوف الحيل، ويبتغون إخراج ما عندهم من العلل، في إظهار ما لديهم من العلوم والحكم حتّى كان من تلك العلل وضع هذا الكتاب على أفواه البهائم والطير [1] .

فالكتاب إذن قد جمع حكمة ولهوا، فاختاره الحكماء، والأغرار للهوه، والمتعلّم من الأحداث ناشط في حفظ ما صار إليه من أمر يربط في صدره ولا يدري ما هو، بل عرف أنّه قد ظفر من ذلك بمكتوب مرقوم [(*)]، وكان كالرجل الذي لمّا استكمل رجولته وجد أبويه قد كنزا له كنوزا، وعقدا له عقدا [(*)] استغنى بها عن الكدح في ما يعمله من أمر معيشته، فأغناه ما أشرف عليه من الحكمة عن الحاجة إلى غيرها من وجوه الأدب [(2)]

وكان كتاب "كليلة ودمنة " يسمى قبل أن يترجم إلى العربية باسم " الفصول الخمسة "، وهي مجموعة قصص ذات طابع حكمي أخلاقي، يرجّح أنّها تعود إلى أصول هندية، مكتوب بالسنسكريتية، ويتضمّن قصّة الفيلسوف بيدبا، التي تروي قصّة عن ملك هندي يدعى دبشليم طلب من حكيمه أن يؤلّف له خلاصة الحكمة بأسلوب مسل [(3)] .

ومعظم شخصيّات قصص "كليلة ودمنة " عبارة عن حيوانات بريّة، فالأسد هو الملك، وخادمه ثور اسمه **شتربه**، وكليلة ودمنة هما اثنان من **حيوان ابن آوى** وشخصيّات أخرى عديدة، وتدور القصص بالكامل ضمن الغابة وعلى ألسنة هذه الحيوانات، فهي قصص تقوم أساسا على نمط الحكاية المثلية، لأنّه كتاب وضع على ألسنة البهائم والطيور، وحوى تعاليم أخلاقية موجّهة إلى رجال الحكم وأفراد المجتمع، اتّخذ فيها الحيوان بديلا عن الإنسان، ودليلا عليه، فقامت على الإيحاء والرمز [(4)] .

ونمط المثل الذي يتّخذه كتاب "كليلة ودمنة " في سرد قصصه يؤسّس لرؤية حجاجية واضحة تغلب على أبواب هذه المدوّنة، « إذ تتميّز الحكاية المثلية بكونها نصوصا

حجاجية حكمية، ترمي إلى إحداث تغيير أو إطراء عبرة في نفس المتلقي، رغبة في الاقتداء به، والحرص على تغيير المجتمع وتوجيهه إلى ما يتوجّب فعله أو تجنّبه » [5] .

وهذا ما سنركّز على وصفه وتحليله في أجزاء هذه المقالة، إذ سنعتمد ضرب المثل في الباب محل الدراسة – أي باب " الأسد والثور " – كحجّة تتبيّن عبرها الأغراض التي يهدف المؤلّف إلى تحقيقها، ومضمون الرسالة التي يسعى إلى توصيلها، فكيف يأتي توظيف المثل في هذا الباب من "كليلة ودمنة " ؟ وما طريقته في توصيل رسالة صاحب الكتاب ؟ وما أهدافه التي رسمت له ؟ وما مدى توفيقه في تحقيقها ؟ هذا وغيره ما نحاول تبيانه والبحث عن تجسيده ضمن ما تحتويه أجزاء المقالة، ولأجل ذلك نعرض بداية إلى تناول مفهومين أساسين هما : مفهوم الحجاج ومفهوم المثل، ثم بيان ارتباطهما في جعل أحدهما وسيلة لتحقيق الآخر .

2 – مفهوم الحجاج :

لابدّ أنّ هذا المصطلح كغيره يقترن بشقين اثنين؛ لغوي واصطلاحي؛ أمّا اللغوي فهو من حاجّ، وقال ابن منظور : « حاججته أحاجّه حجاجا ومحاجّة حتّى حججته أي غلبته بالحجج التي أدليت بها (...) وحاجّه محاجّة وحجاجا نازعته الحجّة (...)، والحجّة الدليل والبرهان » [6] .

وجاء في مختار الصحاح أنّ : « الحجّة هي البرهان وحاجّه فحجّه من باب ردّ أي غلبه بالحجّة، وفي مثل : لجّ فحجّ فهو رجل محجاج بالكسر أي جدل، والتحاج التخاصم، والمحجّة بفتحتين جادّة الطريق » [7] .

وفرّق القرآن بين معنى الحجاج والجدل في الاستخدام، حيث أشار إلى ذلك محمّد الطاهر بن عاشور، الذي قال بشأن حاجّ في قوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه** ﴾ (البقرة / 258)، ومعنى حاجّ خاصم، وهو فعل جاء على زنة المفاعلة، ولا يعرف لـ(حاجّ) في الاستعمال فعل مجرّد دالّ على وقوع الخصام، ولا تعرف المادّة التي اشتقّ منها (...)، مع أنّ حاجّ لا يستعمل غالبا إلاّ في معنى المخاصمة (...) وأنّ الأغلب أنّه يفيده الخصام بباطل [8] .

أمّا في الاصطلاح فإن تحديد مفهوم الحجاج يختلف وتعريفه يتنوّع، إلاّ أننا نحاول أن نعرض لتعريف عام دون نسبة خصوصية لصاحبه، ونذكر لذلك محدّدين أساسيين اتفق عليهما كلّ من درس الحجاج « إذ هو خطاب إقناعي؛ أي أنّ هدفه التأثير في المتلقي، إمّا لتدعيم موقفه وإمّا لتغيير رأيه فتبني موقف جديد »[9].

ومن ثمّة فالمحدد الأول للحجاج لا يتعلّق بالشكل اللغوي أو بمحتوى الخطاب، ولكن بوظيفته الكلّية، فالنّص الحجاجي لا يمكن أن يعرّف من خلال خصائص شكلية لغوية (مثلما يفعلونه بالأشكال الخطابية)، إذ أنّه يمكن أن يتواجد مع الوصف أو مع السّرد أو مع الشعر أو غيرها[10].

ويعرّف الحجاج في محدّده الثاني بكونه بعد جوهري في اللغة ذاتها، مما ينتج عن ذلك أنّه حيثما وجد خطاب العقل واللغة فإنّ ثمّة استراتيجية معيّنة نعمد إليها، لغويا وعقليا، إمّا لإقناع أنفسنا أو لإقناع غيرنا، وهذه الاستراتيجية هي الحجاج ذاته، وهي تستمدّ خصوصيتها وقيمتها من الحقل الذي تتحقّق فيه، ويعطيها الشرعية، وقد يكون هذا الحقل هو الحياة اليومية للنّاس وقيمهم، أو يكون هو الفكر، والتفكير من أبسط درجاته إلى أكثرها تعقيدا وتجريدا[11].

3- المثل آلية حجاجية :

يطلق المثل في اللّغة على الشيء الذي يضرب لشيء مثلا، فيجعل مثله، يقال تمثّل فلان : ضرب مثلا، وتمثّل بالشيء ضربه مثلا، والمثل والمثل كالمثل والجمع أمثال[12]، قال تعالى : ﴿ **ولله المثل الأعلى** ﴾ (النحل / 60)، يريد أنّه سبحانه أمر عباده بتوحيده ونفى كلّ إله سواه، فالمثل الأعلى هنا التوحيد الخالص، والصفات الإلهية العليا التي لا ينازعه فيها أحد[13]

والمثل بكسر الميم الشبه، يقال مثل ومثيل وشبه وشبه بمعنى واحد، كما ورد في قوله تعالى : ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ (الشورى / 11)، أراد ليس كذاته شيء، فالنفي المطلق يؤكّد على حقيقة وحدانيته، وينزّهه عن النظير والمثيل جلّ وعلا[14]، ونقول مثل الشيء يمثل مثولا،

قام منتصبا، ومثل بين يديه مثولا أي انتصب قائما، ومنه قيل لمنارة المسرجة ماثلة، وورد في الحديث الشريف : **" من سرّه أن يمثل له النّاس قياما فليتبوأ مقعده من النّار "** [15] .

ومن معاني المثل في اللغة أيضا المدح والثّناء، ومنه قالوا : مثل الرجل يمثل مثالة إذا فضل وحسن حاله، فالمثالة حسن الحال، والمثيل : الرجل الفاضل، والأمثل الأفضل، وهو أمثل قومه؛ أي أفضلهم، وفلان أمثل بني فلان، أدناهم إلى الخير، وهؤلاء أماثل القوم؛ أي خيارهم [16]، والتمثال الصورة المصوّرة، والجمع تماثيل، وفي ثوبه تماثيل؛ أي صور حيوانات (...)، ومثّل له الشيء صوّره حتّى كأنّه ينظر إليه، وأمتثله هو تصوّره، ومثّلت له كذا تمثيلا إذا صوّرت له مثالة بكتابة وغيرها [17] .

أمّا في الاصطلاح فقد قال المرزوقي في معنى المثل : « المثل جملة من القول مقتضبة من أصلها، أو مرسلة بذاتها، تتّسم بالقبول وتشتهر بالتداول، فتنقل عمّا وردت فيه إلى كلّ ما يصلح قصده بها، من غير تغيير يلحقها في لفظها، وعمّا يوجبه الظاهر إلى أشباهه من المعاني، فلذلك تضرب وإن جهلت أسبابها التي خرجت عليها، واستجيز من الحذف ومضارع ضرورات الشعر، فيها ما لا يستجاز في سائر الكلام » [18] .

فالمثل عند المرزوقي إذن جملة موجزة في أصلها، ممّا يعطيها سمة القبول والشيوع بفعل التداول، ويطلق في موقف موافق أو مشابه لحادثته الأصلية، دون تغيير يذكر في صيغته اللفظية، ويستجاز فيه ما لا يستجاز في غيره من الكلام .

أمّا الفارابي فعرّفه بقوله : « المثل ما تراضاه العامّة والخاصّة في لفظه ومعناه حتّى ابتذلوه فيما بينهم، وفاهوا به في السرّاء والضرّاء، واستدرّوا به الممتنع من الدرّ (جواهر الكلام)، ووصلوا إلى المطالب القصيّة، وتفرجوا عن الكرب والمكربة، وهو أبلغ الحكمة؛ لأنّ النّاس لا يجتمعون على ناقص أو مقصر في الجودة، أو غير مبالغ في بلوغ المدى في النفاسة » [19] .

ونخلص من ذلك إلى أنّ المثل قول موجز العبارة، بليغ القصد، صدر عن العامة وارتضته في حياتها، وقد جاء معبّرا عن تصرفاتهم تجاه مواقف اعترضتهم، وينشأ في البداية عن قصّة أصلية أو حادثة تدعى (مورد المثل)، ويضرب بعد ذلك في موقف معيّن أو

حادثة مشابهة أو مقاربة بوجه ما للحادثة الأصلية، والتي تسمّى (مضرب المثل)' « والأمثال بعدّها رموزا وإشارات يلوّح بها على المعاني تلويحا، صارت من أوجز الكلام وأكثره اختصارا، ومن أجل ذلك قيل في حدّ المثل – أيضا – إنّه القول الوجيز المرسل ليعمل عليه، وحيث هو بهذه المثابة فلا ينبغي الإخلال بمعرفته » [20].

وقال ابن وهب : « وأمّا الأمثال فإنّ الحكماء والعلماء والأدباء لم يزالوا يضربون الأمثال، ويبيّنوا للنّاس تصرّف الأحوال بالنظائر والأشباه والأمثال، ويرون هذا النوع من القول أنجع مطلبا، وأقرب مذهبا، ولذلك جعلت القدماء أكثر آدابها وما دونته من علومها بالأمثال والقصص » [21]، وأضاف الزمخشري في ذلك قوله : « هي قصارى فصاحة العرب العرباء، وجوامع كلمها، ونوادر حكمها، وبيضة منطقها، وزبدة حوارها وبلاغتها، حيث أوجزت اللفظ، وأشبعت المعنى، وقصّرت العبارة فأطالت المغزى، ولوّحت فأفرغت في التصريح، ووكّنت فأغنت عن الإفصاح » [22]

وانطلاقا من أنّ المثل هو المثيل والشبيه، وأنّ توظيفه بمثابة التمثيل لغيره، فإنّ التمثيل أو الحجاج بالتمثيل كما هو حال الحجاج بالمثال ينتمي إلى صنف الحجاج الاستقرائي، الذي ينطلق من الخاص إلى العام، لذلك صنّفه بيرلمان (Perelman) تحت عنوان **" المواضع التي تؤسّس بنية الواقع "**، وسمّاه كين باوتنر(Kienpointner) بالحجاج **" المؤسّس لقواعد الاستنتاج "** [23]، فالانطلاق من مثل أو مثال خاص وتعميمه على وضعية عامّة من أكثر الأساليب الناجحة لإقناع الآخرين، إذ المثال ملموس، وقريب من تصوّر المستمعين وفهمهم [24].

وكذلك المثل وقصّته التي تدلّ عليه، وتجعل فهمه متاحا لدى سامعيه، فيكون في سرد قصّته، ومعرفة مبتغى مستعمله من ذلك خير معين للسامع على الفهم والاقتناع، فضلا عن الاستمتاع بما يحمله من أثر فني، و« الحجاج بالتمثيل يتأسّس على نوع من المقارنة هي التشبيه بين علاقة وعلاقة أخرى » [25]، إذ مقام الحديث علاقة ومقام المثل علاقة أخرى، وإن لم تتطابق بينهما الأشخاص والأمكنة والأزمنة، تشابه بينهما سياق الحال

والحدث، فبدا متطابقا عند المستعمل للمثل، الذي يريد نقل هذا الرأي إلى غيره ليقرّه عنده ويقنعه به .

4 – مضمون باب " الأسد والثور " من كتاب – كليلة ودمنة - :

باب " الأسد والثور " هو الباب الخامس من أبواب كتاب "كليلة ودمنة " لابن المقفّع، ويبدأ بقول الملك دبشليم لبيدبا الفيلسوف : (اضرب لي مثلا متحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال حتّى يحملها على العداوة والبغضاء) [26]، فيردّ بيدبا بقوله : (ومن أمثال ذلك) [27]، ويحكي له مثل التاجر وبنيه، وهو المثل الإطار، أو الحكاية الكبرى، التي تتضمن أمثالا صغرى تكوّن مجمل الباب .

وتتلخّص قصّة المثل الإطار في رجل شيخ له من الأبناء أسرفوا في ماله دون حرفة يحترفونها، فلامهم بقوله : (يا بني، إنّ صاحب الدنيا يطلب ثلاثة أمور لن يدركها إلاّ بأربعة أشياء، أمّا الثلاثة التي يطلب : فالسعة في الرزق، والمنزلة في النّاس، والزّاد للآخرة . وأمّا الأربعة التي يحتاج إليها في درك هذه الثلاثة : فاكتساب المال من أحسن وجه يكون، ثمّ حسن القيام على ما اكتسب منه، ثمّ استثماره، ثمّ انفاقه فيما يصلح المعيشة ويرضي الأهل والإخوان فيعود عليه نفعه في الآخرة . فمن ضيّع شيئا من هذه الأحوال لم يدرك ما أراد من حاجته) [28].

ويتواصل حديث بيدبا، ويذكر أنّ الأبناء اتّعظوا لحديث أبيهم، ويفرد القصّة بعد ذلك للابن الأكبر فيقول : (فانطلق أكبرهم نحو أرض يقال لها : ميون (*)، فأتى في طريقه على مكان فيه وحل كثير، وكان معه عجلة يجرّها ثوران، يقال لأحدهما شتربة، وللآخر بندبة . فوحل شتربة في ذلك المكان فعالجه الرجل وأصحابه حتّى بلغ منهم الجهد، فلم يقدروا على إخراجه، فذهب الرجل وخلف عنده رجلا يشارفه لعلّ الوحل ينشف فيتبعه به . فلّما بات الرجل بذلك المكان تبرّم به واستوحش، فترك الثور ولحق بصاحبه فأخبره أنّ الثور قد مات) [29]، واتبع ابن المقفّع حديثه عن هروب الرجل والتحاقه بصاحبه مصوّرا حاله بمثل يتضمّن قصّة جديدة (مثل الرجل الهارب من الذئب) .

وما إن تنتهي قصّة المثل الجديد حتّى تتواصل قصّة المثل الإطار من حيث تمّ ضرب المثل المذكور، ويأتي الحديث عن الثور وما حصل له بعد هروب الرّجل الذي تركه صاحبه إلى جواره، وتبدأ أحداث جديدة مع شخصيّات جديدة أهمّها **كليلة ودمنة**، أخوين من ابني آوى – كما سلف الذكر في تقديم الكتاب – يعملان كحارسين للأسد الملك، وهما من الحرّاس قليلي الشأن لدى الملك المنفرد برأيه دون أصحابه وحاشيته، وكان دمنة على خلاف أخيه كليلة سريع الملاحظة متفطّنا لكلّ ما يجري حول الملك وما يدور بخاطره، وحدث أن لاحظ عبر أيام ما رابه من أمر الأسد، الذي قضى وقتا لا يغادر مكانه، ولا ينشط كعادته، فسأل أخاه كليلة عن ذلك، فلامه ونهره بقوله : (ما شأنك أنت والمسألة عن هذا ؟ نحن على ملكنا آخذين بما أحبّ وتاركين ما يكره، ولسنا من أهل المرتبة التي يتناول أهلها كلام الملوك والنظر في أمورهم . فأمسك عن هذا وأعلم أنّه من تكلّف من القول والفعل ما ليس من شكله أصابه ما أصاب **القرد من النجّار**) [30].

ويذكر كليلة مثلا ثانيا هو مثل القرد والنجّار، ويسرد قصّته، ويستمرّ حديثه مع دمنة، في شأن ما سأل عنه الثاني فضولا وتطلّعا إلى منزلة أعلى، ورفضه الأوّل تواضعا وإدراكا لحقيقة مرتبته من الملك، ولا يزال دمنة في حديثه ذاك، ثمّ ما لبث أن انطلق حتّى دخل على الأسد حيّاه تحية الملوك، وسأل الأسد جلسائه عنه فذكروا له اسمه، وعرّفه هو بمنزلته (لم أزل مرابطا باب الملك) [31]، وفتح المجال عنده سؤالا وجوابا إلى أن اطمئنّ إعجابه به، الذي ما فتيء يزداد حتّى بلغ مداه، ممّا أراح دمنة وجعله يأنس بالأسد وينفرد بصحبته، وما يزال دمنة كذلك حتّى عرف ما يبطن الأسد من سبب جلوسه في مكانه، وقلّة حركته ونشاطه في قول ابن المقفّع (... فبينما هما في هذا الحديث إذ خار شتربة خوارا شديدا، فهيّج الأسد، وكره أن يخبر دمنة بما ناله . وعلم دمنة أنّ ذلك الصوت قد أدخل على الأسد ريبة وهيبة . فسأله : هل راب الملك سماع هذا الصوت ؟ قال : لم يربني شيء سوى ذلك، وهو الذي حبسني هذه المرّة في مكاني) [32].

وحقّ عند دمنة بعد ذلك أن الأسد ربط بين شدّة الصوت وعظم جثّة صاحبه، فراح إلى تهوين أمر ذلك عليه يضرب له مثل **الثعلب والطبل**، ويروي قصّته مستشهدا،

وانطلق بعدها بإذن من الأسد لمعرفة أمر الصوت وصاحبه، وعاد بخبره مؤكّدا الأمر له قائلا بشأن الثور : (لا تهابنّ أيّها الملك منه ولا يكبرنّ عليك أمره، فأنا على ضعفي آتيك به، فيكون لك عبدا سامعا مطيعا) [33]، وكان للأسد ذلك، فقد جاء له دمنة بالثور، بعد أن احتال عليه بالقول ما أمكنه، لكن الأمر جرى على عكس أمله، فقد اختصّ الثور بصحبة الأسد وقربه، وهذه الحال لم ترق دمنة، وشكى أمره إلى كليلة، الذي ماثله بحال **الناسك واللّص**، وذكر له قصّته، فأظهر اتّعاظه لذلك، وطلب إليه الحيلة مبديا تنازله عمّا كان يطمح إليه من علو المكانة عند الأسد، وتكفيه العودة إلى ما كان عليه قبل وصول الثور، فهوّن عليه كليلة عظم ما يشعر به من علو مكانة الثور عند الأسد، وأشعره أنّه غير محقّ في انزعاجه المفرط من صحبته للأسد .

ويبدو من حديث دمنة المطوّل وامتعاضه الواضح تجاه ما آلت إليه حاله تصميمه على إيجاد الحل، حيث ذكر أمام كليلة أنّ ضعفه وصغر حجمه لن يعدمه الحيلة مع كبر حجم الثور وقوّته بقوله : (أو لم يبلغك أنّ غرابا ضعيفا احتال لأسود [*] حتّى قتله) [34]، وعرض له مثل **الغراب والأسود**، وضمن ذات المثل ذكر ابن آوى للغراب مثل **العلجوم [*] والسرطان**، وخطر لدمنة أن يتّخذ من اعتراف الثور له بفضله وحسن صنيعه معه مطيّة للانتقام منه كما جاء في مثل **الأرنب والأسد** .

ولم يزل دمنة كذلك حتّى حصل على موافقة كليلة إيّاه على الانتقام من الثور، لكن دون مضرّة تلحق بالأسد؛ لأنّ في ذلك غدر بملكهم، الذي يوجبهم الولاء والطّاعة، فحبس نفسه عليه أيّاما، ثمّ دخل عليه، فسأله عن طول غيابه هذا، وإن كان له سببا، فأظهر حيرته في أمره أمامه، وأسرّ إليه في خلوة أنّ سمع من الأمر ما يروّع، وأنّ صدقه مع الأسد ووفائه له يوجب إخباره نصحا ومحبّة، ولكنّه يخشى أن يظنّ ظانّا أنّه على غير ذلك، فهال الأمر الأسد، وأذن له بإظهار ما يبطن، فذكر دمنة أنّ ما سمعه من أمر اعتزام الثور على خيانة الأسد أقلق راحته وشوّش تفكيره، وزاد في الحديث خوفه من هلاك الأسد على يد الثور إن هو توان في إعطاء الأمر حقّ قدره، وضرب له مثل **السمكات الثلاث** .

ولمّا لاحظ دمنة أنّ الأسد مازال يميل للثور، ويبقي على مودّته، ويستغرب ما ذكر له منه، حيث قال : (قد فهمت ذلك ولا أظنّ أنّ الثور يغشني، ولا يرجو لي الغوائل (*)، وكيف يفعل ذلك ولم ير مني سوءا قط، ولم أدع خيرا إلاّ فعلته معه، ولا أمنية إلاّ بلّغته إيّاها) [34]، زاد دمنة في القول، وأغلظ في الكلام، فقال له الأسد – وبدا في ذلك مغايرا لموقفه من الثور - : (... وإن كان شترية معاديا لي كما تقول فإنّه لا يستطيع أن يضرّني، ولا أن يفتت في ساعدي (*)، وكيف يقدر على ذلك، وهو آكل عشب وأنا آكل لحم ؟ وإنّما هو لي طعام، وليس لي علي منه مخافة) [36]، فأجابه دمنة بما ينغّص عنه أمانه الذي يحسّه مع قوّته : (لا يغرّنّك قولك : هو لي طعام، وليس لي علي منه مخافة . فإنّ شترية إن لم يستطعك بنفسه احتال لك من قبل غيره ... ولا تأمنّ أن يصبك منه أو بسببه ما أصاب **القملة من البرغوث**) [37]، وذكر له قصّة هذا المثل، فوقع ذلك من نفس الأسد موقعا سرّ دمنة وأبهجه؛ لأنّ الأسد قد وكّله أمره في ذلك .

إلاّ أنّ هذه الحال لم تطمئن دمنة كثيرا؛ خشي أن يرسل الأسد إلى شترية، ويحاوره، فيبيّن له كذبه، فينتقم منه، لذلك احتاط للأمر ما أمكنه، من جهة الأسد ومن جهة شترية، فأوقع في نفس كلّ منهما ما لا يجعلها تطمئنّ إلى الأخرى، فحدّث الأسد أن يكون حازما؛ لأنّ شترية سيكون خائفا مرتعبا، وأنذر شترية أنّ الأسد أعجب بسمنه، ويريد أن يغدر به، ويأكله، وقد يجمع على فعل ذلك رفقة أصحابه، فلا تكون له حيلة للخلاص، فخاف شترية، وخشي أن يكون مثله كمثل **الذئب والغراب وابن آوى والجمل**، فنصحه دمنة أن يسعى إلى الخلاص ما استطاع، ولا يحسب بنفسه قوّة تنجيه من الأسد حتّى لا يكون مثله كمثل **الطيطوى** (*) **ووكيل البحر**، وضمن قصّة هذا المثل ذكرت أنثى الطيطوى مثل **السلحفاة والبطتين**، وزاد له أن يكون إذا ما قابل الأسد أو طلب الأسد مثوله بين يديه خائفا وجلا، لا يثبت على حال، وهو نفسه ما وصفه للأسد من حال الثور ليبيّن غدره به .

وحين فرغ دمنة من تحريض الأسد على الثور، وتخويف الثور من الأسد توجّه إلى أخيه كليلة، وأخبره بما وصل إليه وحقّقه، وذهب به لحضور قتال بين الأسد والثور،

فلمّا كانا هناك لاحظ كليلة ما بلغه الأمر بين الأسد والثور، إذ جرح الأوّل وهلك الثاني، فحذّر أخاه دمنة من مغبّة فعل يلحق مضرّة بالأسد، وهو ما كان شرط كليلة؛ لأنّ الأسد ملكهما الذي يوجبهما الطّاعة والحماية، وذكر له مثلا يشبّه حالهما بحال **القردة والطائر والرجل**، ثمّ أثنى بمثل آخر يشبه حال دمنة في خرقه وسوء تدبيره هو مثل **الخبّ** (*) **والمغفّل**، وجاء في قصّته على لسان والد الخبّ مثل **العلجوم والحيّة وابن عرس**، وقال كليلة : (إنّما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنّ الخبّ والخديعة ربّما كان صاحبهما هو المغبون . وإنّك يا دمنة جامع للخبّ والخديعة والفجور . وإنّي أخشى عليك ثمرة عملك، مع أنّك لست بناج من العقوبة؛ لأنّك ذو لونين ولسانين) [38]، وحدث ما تنبّأ به كليلة لدمنة، فقد كشف للأسد كذبه وفجوره، فقتله شرّ قتلة .

5 – أنماط المثل وفعلها الحجاجي في باب " الأسد والثور " :

إنّ توظيف المثل في كتاب "كليلة ودمنة " هو أساس من أسس ثلاثة يتشكّل وفقها مضمون الكتاب، إذ يتلخّص بناؤه بوجه عام في السرد والحوار والمثل [39]؛ لأنّ الهدف الذي يروم تحقيقه موجّها أساسا إلى نقد أخلاقيّات موجودة في الحياة اليومية وتقويمها، وإعطاء العبرة في حال مخالفة المقصود منها .

ويشتمل الكتاب على مائة وواحد وتسعين مثلا، يرتبط ورودها في نصوص الكتاب بوجود الحوار، إذ نجدها تأتي متضمّنة في عبارات حوارية بين الملك والفيلسوف بيدبا [40] أثناء الحديث الجاري بينهما، أو بين كليلة ودمنة خلال تحاورهما سؤالا وجوابا ونصحا، أو بين شخصيّات قصص الأمثال المختلفة، و« قد اتّفق كثير من الدارسين أنّ " الحكاية المثلية " نص حجاجي تهذيبي جمالي، يروم تثبيت قيم أخلاقية / إنسانية، وإيصال غرض تعليمي إلى المتلقي » [41] . وفي باب " الأسد والثور " - محلّ الدراسة - كثير من هذه المقاصد، والممثّلة خاصّة في مفهومي الحب والاحتيال من جهة، والمكر والغدر والخديعة من جهة أخرى .

وتمتزج في الكتاب أصولا عدّة للمثل، نظرا لكونه مستمدّ من تراث مشترك لشعوب مختلفة – هندية، وفارسية، وعربية، مكوّنا وحدة ثقافية بين هذه الشعوب [42]،

ويجمع من تناولوا الكتاب أنّ المثل المتضمّن لا يرد في شكل واحد، ولكن في أشكال عدّة، تختلف باختلاف موضع استعماله، والملاحظ في الباب المدروس أنّ المثل يأتي وفق ثلاثة أنماط، تتحدّد كالآتي :

أ – المثل الإطار : وهو ما كوّن إطارا عامّا، تتفرّع عنه أمثالا أخرى، ويمكن أن يشكّل الباب في مجمله، مثلما هو الحال في باب " الأسد والثور "، ونجد ابن المقفّع يعلن عنه قبل البدء في سرد الأحداث، وتتمثّل في حكاية الملك دبشليم والفيلسوف بيدبا، حين يطلب الأوّل من الثاني أن يضرب له مثلا في قوله : (اضرب لي مثلا لمتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال حتّى يحملهما على العداوة والبغضاء) [(43)]، ويأتي ذكر المثل – **مثل التاجر وبنيه** – ليقف شاهدا يلخّص المثل ويعطي العبرة، التي يكون فيها التوجيه مقصودا من قبل المتكلّم، والمثل محدّد الغرض من قبل السامع، إذ يمثّل دمنة هنا الكذوب المحتال الذي فعل ما أمكنه، وإن بالحيلة والكذب والخداع ليفرّق بين متحابين هما الأسد والثور، بعدما جمعتهما المحبّة والصدق، وصار الأوّل يأمّن الثاني على حياته، والثاني ينصح الأوّل صدقا وأمانة، لا مصلحة وخداعا، والأسد في المثل هو صورة كلّ حاكم كان كما وصفه ابن المقفّع (وكان هذا الأسد منفردا برأيه دون أخذ برأي أحد من أصحابه) [(44)]، وأمّا دمنة فهو مثل الرجل الذي يهوى التقرّب إلى السلطان، طمعا في اغتنام مصلحة أو تحسين حال أو إصابة مال، دون أن يهمّه أحد؛ لأنّ الغاية عنده تبرّر الوسيلة، في حين أن الثور هو مثل الرجل البريء إلى درجة السذاجة، قد يخدعه أيّ أحد؛ لأنّه لا يضمر شيئا سيّئا في نفسه تجاه أحد، وقد يصدّق كلّ ما يقوله له، خاصّة إذا كان القائل مثل دمنة، يحكم وصفه ويعدّد حججه وأساليبه .

ب – المثل الفرع : وهو مجموع الأمثال التي تتفرّع عن المثل الإطار، وهي حكايات مثلية صغرى تتضمنها الحكاية الإطار، تبدو نتاج سياق الحديث بين شخصيّات الحكاية الكبرى، ولكنّ الشخصيّة تحكم نسجها، فيكون فعلها التأثيري أوقع في نفس سامعها، بالتالي تكون أقدر على توجيهه واقناعه، وهي أقوى حجة من المثل الإطار، على الرغم من أنّها في الحقيقة إحدى وسائله . وتتردّد ضمن باب " الأسد والثور " إمّا على لسان دمنة مستشهدا لعدد

من تصرّفاته وخططه في سبيل الإيقاع بالأسد، وجعله يطمئن له، ويقرّبه في بداية الباب، أو من أجل خداع الثور في شراكه والانتقام منه، ومحاولة المحافظة على مكانته عند الأسد بعد ذلك.

وترد هذه الأمثال كذلك ضمن حواراته مع أخيه كليلة، ومن ذلك **مثل الغراب والأسود**، الذي ذكره دمنة عند إدراكه أنّ الثور أخذ مكانه عند الأسد، وانفرد بصحبته ومشورته، وضرورة انتقامه ومحاولة استرجاع ما كان من حقّه، وأنّ ضعفه وقوّة الثور لا يعني قلّة حيلته، وحسن تدبيره، كما أورد دمنة **مثل الأرنب والأسد**، حين عزم أن يتّخذ اعتراف الثور له بالفضل مطية للإيقاع به، وليصرعه مثلما صرع الأرنب الأسد، ومن الأمثلة الأخرى على لسان دمنة أيضا في حواره مع الأسد لمعرفة سبب قلّة حركته، واكتشافه لخوفه من صوت الثور، وجعل الصوت دليل عظم الجثّة في **مثل الثعلب والطبل**، وعند تدبيره لأمر الانتقام من الثور، إذ يورد **مثل السمكات الثلاث** في نصحه للأسد أن يعدّ العدّة للثور، الذي ينوي الغدر به، وأن لا يفتح له مجال الخلاص، ثمّ يوظّف مثلا آخر هو **مثل القملة والبرغوث**، حين إبداء نصحه للأسد أن لا يغترّ بقوّته وضعف الثور؛ لأنّ الضعف إذا كان بالمعونة والحيلة غلب القوّة، ويتّضح فعل هذه الأمثال لما ظهر من توجيه رأي الأسد في الثور لما يخدم غرض دمنة، حيث تغيّر وانقلب رأسا على عقب، من الصداقة إلى العداوة، ومن الحب إلى البغضاء، ومن الأمانة له إلى الحذر الشديد منه .

ويزيد فعل تأثير هذه الأمثال، وتوجيه الآراء بها لما يخدم غاية دمنة، من مثل ما يأتي في حواره مع الثور، وتحريضه ضدّ الأسد، الذي يضمر الغدر به، **مثل الطيطوى ووكيل البحر**، وجاء عددا من الأمثال على لسان كليلة في نصح أخيه دمنة من مغبّة أفعاله وسوء تقديره، الذي تتحقّق نتيجته في نهاية الباب، حين يكشف الأسد كذبه، وأنّ قتله للثور كان ظلما في حقّه، فينتقم من دمنة ويقتله شرّ قتلة، ومن ذلك **مثل القرد والنجّار** حين ذكر له دمنة نيّة تقرّبه من الأسد لإصابة المكانة، وسؤاله الملح عن سبب مكوث الأسد في مكانه، وقلّة حركته لفترة من الزمن، و**مثل الناسك واللّص** حين أبدى له دمنة شدّة غضبه

من صحبة الأسد والثور، ومدى أثرها على علاقته هو به، ومثلي **القردة والطائر والرجل، والخبّ والمغفّل** حين بلغه قتال الأسد والثور، ورأى حالة الأسد .

وفضلا عن ذلك فقد وردت بض الأمثال الفروع على لسان بعض الشخصيّات الحيوانية في أمثال أخرى، ومن ذلك نذكر : **مثل العلجوم والسرطان** الذي ورد على لسان ابن آوى في مثل **الغراب والأسود، ومثل السلحفاة والبطتين** الذي جاء على لسان أنثى الطيطوى في مثل **الطيطوى ووكيل البحر، ومثل العلجوم والحيّة وابن عرس** الذي عرض على لسان والد الخبّ في مثل **الخبّ والمغفّل**، ولا تختلف عن غيرها في قوّة تأثيرها، وقدرتها على تغيير آراء متلقيها من الضدّ إلى الضدّ .

ج – المثل القول : وورود هذا النمط قليل مقارنة بسابقيه، يتناثر هنا وهناك في ثنايا الكتاب، ولعلّ فعله أقل، وتأثيره أخف من النمطين السابقين، وربّما ذلك راجع إلى أنّ السامع أو المتلقي كثيرا ما لا ينتبه إلى وجوده؛ لأنّه دون قصّة تدلّ عليه، أو موقف يستدعيه، وإنّما يأتي ضمن الكلام، ومن أمثلة ذلك نجد قول التاجر لبنيه في قصّة المثل الإطار، بشأن حديثه عن المال إذا منع الاستثمار مع كثرة الإنفاق : **كالكحل الذي لا يؤخذ إلاّ غبار الميل، ثمّ هو مع ذلك سريع فناؤه**، وقوله أيضا بشأن صاحب المال في هذه الحال : **كمحبس الماء الذي لا تزال المياه تنصبّ فيه، فإن لم يكن له مخرج ومفاض ومتنفّس يخرج منه الماء بقدر ما ينبغي، خرب وسال ونزّ من نواح كثيرة، وربّما انبثق البثق العظيم فذهب الماء ضياعا .**

وجاءت أقوال هذا النمط من الأمثال أغلبها على لسان دمنة، تارة من أجل تبرير أفعاله والاستشهاد لمواقفه، وأخرى على لسان أخيه كليلة في نصحه وتقديم المعونة له، من مثل قول دمنة في حديثه عمّن لا يرض بالقليل، ويسعى إلى تحيّز الفرص واغتنامها : **كالأسد الذي يفترس الأرنب، فإذا رأى البعير تركها وطلب البعير (...) وأنّ الفيل المعترف بفضله وقوّته إذا قدّم إليه علفه لا يعتلفه حتّى يمسح وجهه ويتملّق**، وقوله محبّة في ارتفاع مكانته وعسر مهمّته في إصابة ذلك : **كالحجر الثقيل رفعه من الأرض إلى العاتق عسر، ووضعه إلى الأرض هيّن**، وقول كليلة حين رأى ما بلغه قتال الرجل والثور : **أنّ أخرق الخرق من**

حمل صاحبه على سوء الخلق والمبارزة والقتال وهو يجد إلى غير ذلك سبيلا . وإنّما الرجل إذا أمكنته الفرصة من عدوّه يتركه مخافة التعرّض له بالمجاهرة ورجاء أن يقدر عليه بدون ذلك، وقوله حين إدراكه طيش أخيه : **أنّ السلطان إذا كان صالحا ووزراؤه وزراء سوء منعوا خيره فلا يقدر أحد أن يدنو منه، ومثله في ذلك مثل الماء الطيّب الذي التماسيح لا يقدر أحد أن يتناوله وإن كان إلى الماء محتاجا**، ويبدو في ذلك خطاب واضح من بيدبا إلى دبشليم الملك ينقله كليلة على لسانه .

والملاحظ أنّ كل نمط من أنماط المثل يوظّف للاستشهاد ظاهرا، ولغرض الإقناع برأي أو العدول عليه باطنا، حيث يكون المثل حجة من أقوى أنواع الحجج تأثيرا وإقناعا، وأغلبها وأظهرها على مادّة الكتاب، خاصّة ما كان منها متبوعا بقصّة، توضّح سبب ضربه، وتقابل الموقف الذي يريده المتمثّل به، ولعلّ النمط الثاني؛ أي المثل الفرع، هو الأكثر فعلا، والأبلغ تأثيرا من غيره، وهو النمط الغالب، إذ يشكّل بنية أساسية في هيكلة الباب، ويقوم حجة دامغة لكلّ متلق، في سبيل إدراك ما يرمي إليه صاحبه من مجموع الأهداف التعليمية والإصلاحية، كما يقف إشارة واضحة تبيّن دواخل النفس عند مجموع الشخصيّات، التي تتعلّق بأدوارها ضمن قصصه المختلفة، إن في جانبها الظاهر من الشخصيّات الحيوانية، أو في جانبها الباطن من الشخصيّات البشرية، التي يتّخذ الحيوان بديلا عنها في حياة الواقع .

6 – خاتمـــة عامّـــة :

ختاما نخلص إلى أنّ توظيف المثل في باب " الأسد والثور " من كتاب **"كليلة ودمنة "** لابن المقفّع نمطا حجاجيا يقوم على ثنائية **الظاهر / الباطن**، التي يمثّلها الكتاب، حيث يظهر ضرب المثل الذي يبديه صاحب الكتاب أو راوي القصص الفيلسوف بيدبا ما يقصده في قصّته، في حين يختفي وراء ذلك الغرض النقدي الذي يتضمنه لمجريات الحياة في زمن الراوي أو صاحب الكتاب، فيمثّل هذا الباب « السّلطة العليا في البلاد، ويعطي صورة مصغّرة عن الحياة في القصر، وما يدور فيه من مكائد وسعايات » [45] من مثل ما ورد من تصرّفات دمنة في ثنايا الباب من سعي إلى التقرّب من الملك، ومكائد حاكها في سبيل تحقيق ذلك وحفاظا على مكانته عنده، وسعي كليلة في رجوعه عن ما يفكّر فيه دون

جدوى، كما « يشير الباب إلى عدم تبصر بعض الملوك في اصغائهم لوشايات المحتالين »[46] مثلما كان سعي دمنة للوشاية بالثور عند الأسد كذبا وخداعا وحيلة أمكنته من إيغار صدره عليه، على الرغم من براءته ممّا نسب إليه .

والباب في مجمله يرمي إلى إبراز وجهات نظر نقدية لما يجري من أمور الحياة والسياسة في زمن ساد فيه طغيان الحاكم، وسكت فيه صوت الحق، إلاّ من بصيص باحث عن الحقيقة، مستجليا لإظهار ضوئها، عساه يغلب فينير ظلمة الباطل، الذي غلّف كلّ شيء، كان الممثّل له شخص الفيلسوف بيدبا، الذي خشي أن يجهر بالأمر صراحة فيقابل بالرفض والنفور، فستره وأخرجه في حلّة حجاجية مثلية تستهوي اللاهي لفكاهتها، وتنفذ بمضمونها الباطن إلى عقل المتبصّر، فيتدبّر في معانيها، ويدرك كنهها .

كما يحمل الباب مضامين توجيهية إصلاحية تربوية، يستبين المتدبّر فيها أنّ الكذب والخداع حبله قصير وخيطه واهن، لابدّ أن ينقطع في النهاية، ويظهر حقيقة صاحبه، وقد يؤدي به إلى التهلكة، وأنّ الطمع مغبّة لا تضمن نتيجتها، التي تكون غالبا الندامة والحسرة، وأنّ الخير لابدّ بالغ بصاحبه إلى أرض الأمان والاطمئنان.

هذه بعض القيم والمضامين، التي تكشفت لنا من هذه الدراسة، ولا ندّعي فيها الكمال، ولكن نطمح فيها فقط إلى إضاءة جانب من جوانب تراثنا الزاخر بالدرر والأحجار الكريمة من الكتب والمدوّنات الخصبة للبحث والدراسة، آملين في ذلك الاستفادة والإفادة .

الهوامـــش و المراجـــع

[1] - ابن المقفّع، كليلة ودمنة، اعتنى به سالم شمس الدين، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان، دط، 2005، ص 37 .

(*) – مرقوم أي مخطوط .

(*) – عقدا أي عقارات .

(2) – ابن المقفّع، كليلة ودمنة، اعتنى به سالم شمس الدين، ص 37 .

(3) – http://mostadif.com/showthread.php?t:28994

(4) - http://ar.wikipedia.org/wiki

(5) – http://www.usp1.ps/vp/showthread.php?t:28994

(6) – ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط 1، 1997، مج 2، مادة حجج، ص 27، 28 .

(7) – الرازي، مختار الصحاح، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 1967، مادة حجج، ص 122، 123 .

(8) – ابن عاشور، التحرير والتحبير، الدار التونسية للنشر – الدار الجماهرية للنشر والتوزيع والإعلان، دط، دت، ج 3، ص 31، 32 نقلا عن عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، جامعة منّوبة، كلية الآداب، تونس، 2001، ج 1، ص 14 .

(9) – كورنيليا فون راد - صكّوجي، الحجاج في المقام المدرسي، وحدة البحث في تحليل الخطاب، منشورات كلية الآداب، منّوبة، تونس، 2003، ص 13 .

(10) – نفسه، ص 11 .

(11) – حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي – عناصر استقصاء نظري، مجلّة عالم الفكر، مجلّة دورية تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد الأوّل، المجلّد 30، يوليو- سبتمبر 2001، ص 99، 100 .

(12) – ابن منظور، لسان العرب، مج 6، مادة مثل، ص 14، 15 .
(13) – نفسه، ص 14، 15 .
(14) – نفسه، ص 14، 15 .
(15) – نفسه، ص 14، 15 .
(16) – نفسه، ص 14، 15 .
(17) – الفيّومي، المصباح المنير، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، دط، 1987، ص 215 .
(18) – عبد الرحمان جلال الدين السيوطي، المزهر في علوم اللغة، شرحه وضبطه وصحّحه وعنون موضوعاته وعلّق حواشيه محمد أحمد جاد المولى – علي محمد البجاوي – محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت، لبنان، دط، دت، 1 / 486، 487 .
(19) – نفسه، 1 / 486 .
(20) – ابن الأثير، المثل السائر، تحقيق محمود محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، دط، 1995، 1 / 41، 42
(21) – خير الدين شمسي باشا، معجم الأمثال العربية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط1، 1423 هـ – 2002 م، 1 / 11 .
(22) – نفسه، 1 / 11 .
(23) – كورنيليا فون راد – صكّوجي، الحجاج في المقام المدرسي، ص 26 .
(24) – نفسه، ص 26 .
(25) – نفسه، ص 26 .
(26) – ابن المقفّع، كليلة ودمنة، اعتنى به سالم شمس الدين، ص 59 .
(27) – نفسه، ص 59 .
(28) – نفسه ، ص 59 .
(*) – وردت في بعض النسخ متور، وهي مدينة في الهند شمالي أجرا، تدعى اليوم مطرة .
(29) – ابن المقفّع، كليلة ودمنة، اعتنى به سالم شمس الدين، 60 .
(30) – نفسه، ص 62 .

(31) – نفسه، ص 66 .
(32) – نفسه، ص 67 .
(33) – نفسه، ص 69 .
(*) – الأسود : الحيّة العظيمة
(34) – ابن المقفّع، كليلة ودمنة، اعتنى به سالم شمس الدين، ص 75 .
(*) – العلجوم : طائر أبيض اللون .
(*) – الغوائل : المهالك .
(34) – ابن المقفّع، كليلة ودمنة، اعتنى به سالم شمس الدين، ص 80، 81 .
(*) – أن يفتت في ساعدي : أن يضعفني .
(36) – ابن المقفّع، كليلة ودمنة، اعتنى به سالم شمس الدين، ص 82 .
(37) – نفسه، ص 82 .
(*) – الطيطوى : طائر من طيور البحر .
(*) – الخبّ : الخبث والخداع .
(38) – ابن المقفّع، كليلة ودمنة، اعتنى به سالم شمس الدين، ص 97 .
(39) – نديّة حفيز، ابن المقفّع وكتابه "كليلة ودمنة " – دراسة تحليلية، دار هومة، بوزريعة، الجزائر، دط، 2005، ص 180 .
(40) – نفسه، ص 258 .
(41) – http://nounwalqalam.blogspot.com/p/blog-page 9937.html
(42) – ندية حفيز، ابن المقفّع وكتابه "كليلة ودمنة " – دراسة تحليلية، ص 260 .
(43) – ابن المقفّع، كليلة ودمنة، اعتنى به سالم شمس الدين، ص 59 .
(44) – نفسه، ص 61 .
(45) – ندية حفيز، ابن المقفّع وكتابه "كليلة ودمنة " – دراسة تحليلية، ص 195 .
(46) – نفسه، ص 195 .